طبائع الإفرنج وأحوالهم*

أسامة بن منقذ

١ - سبحان الخالق البارئ! إذا خبر الإنسان أمور الإفرنج سبح الله تعالى وقدسه، ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل! وسأذكر شيئا من أمورهم وعجائب عقولهم:

٢ - كان في عسكر الملك فلك بن فلك(١) فارس محتشم إفرنجي قد وصل من بلادهم يحج ويعود. فأنس بي، وصار ملازمي يدعوني: أخي؛ وبيننا المودة والمعاشرة. فلما عزم على التوجه في البحر إلى بلاده قال لي: يا أخي! أنا سائر إلى بلادي؛ وأريدك تنفذ معي ابنك. (٢) (وكان ابني معي، وهو ابن أربع عشرة سنة) إلى بلادي، يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية. وإذا رجع كان مثل رجل عاقل.

فطرق سمعي كلام ما يخرج من رأس عاقل: فإن ابني لو أسر، ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه إلى بلاد الإفرنج.

فقلت: وحياتك! هذا الذي كان في نفسي. لكن منعني من ذلك أن جدته تحبه، وما تركته يخرج معي حتى استحلفتني أني أرده إليها.

قال: وأمك تعيش؟

قلت: نعم.

قال: لا تخالفها.

٣ - ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة(٣) كتب إلى عمي (٤) يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه. فأرسل إليه طبيبا نصرانيا يقال له: ثابت. فما غاب عشرة أيام حتى عاد.

فقلنا له: ما أسرع ما داويت المرضى!

قال: احضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله دملّةٌ، وامرأة قد لحقها نشاف(٥). فعملت للفارس لبيخة، ففتحت الدملة وصلحت. وحميت(٦) المرأة ورطبت مزاجها. فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم: هذا ما يعرف شيئا يداويهم! وقال للفارس: أيما أحب إليك: تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة. قال: أحضروا لي فارسا قويا وفأسا قاطعا(٧). فحضر الفارس والفأس، وأنا حاضر. فحط ساقه على قرمة خشب، وقال للفارس: اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها! فضربه - وأنا أراه - ضربة واحدة ما انقطعت. ضربه ضربة ثانية فسال مخ(٨) الساق، ومات من ساعته!

وأبصر المرأة فقال: هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها: احلقوا شعرها! فحلقوه. وعادت تأكل من مأكلهم: الثوم والخردل، فزاد بها النشاف؛ فقال: الشيطان قد دخل في رأسها! فأخذ الموسى وشق رأسها صليبا، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس، وحكه بالملح فماتت في وقتها!

فقلت له: بقي لكم إليّ حاجة؟ قالوا: لا. فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه!

٤ - وقد شاهدت من طبهم خلاف ذلك: كان للملك خازن من فرسانهم يقال له: برناد(٩)، لعنه الله؛ من ألعن الإفرنج وأرجسهم. فرمحه حصان في ساقه. فعمّلت(١٠) عليه رجله وفتحت(١١) في أربعة عشر موضعا. والجراح كلما ختم(١٢) موضع فتح موضع؛ وأنا أدعو بهلاكه. فجاءه طبيب إفرنجي، فأزال عنه تلك المراهم وجعل يغسلها بالخل الحاذق(١٣). فختمت(١٤) تلك الجراح وبرأ، وقام مثل الشيطان.

٥ - وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة: يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته؛ يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة، ويعتزل بها، ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث. فإذا طولت عليه(١٥) خلاها مع المتحدث ومضى!

٦ - ومما شاهدت من ذلك: أني كنت إذا جئت إلى نابلس(١٦) أنزل في دار رجل يقال له: معز؛ داره عمارة المسلمين(١٧)، لها طاقات تفتح إلى الطريق، ويقابلها - من جانب الطريق الآخر - دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجار.

فجاء يوما ووجد رجلا مع امرأته في الفراش؛ فقال له: أي شيء أدخلك إلى عند امرأتي؟

قال: كنت تعبان(١٨) دخلت استريح.

قال: فكيف دخلت إلى فراشي؟

قال: وجدت فراشا مفروشا نمت فيه.

قال: والمرأة نائمة معك!

قال: الفراش لها. كنت أقدر أمنعها من فراشها؟

من تراث النثر

قال: وحق ديني، إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت!

فكان هذا نكيره(١٩) ومبلغ غيرته. فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم: ما فيهم غيرة ولا نخوة، وفيهم الشجاعة العظيمة؛ وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة من سوء الأحدوثة(٢٠).

١٠ - ومن الإفرنج قوم قد تبلدوا(٢١) وعاشروا المسلمين؛ فهم أصلح من القريبي العهد ببلادهم. ولكنهم شاذ لا يقاس عليه.

فمن ذلك: أنني نفذت(٢٢) صاحبا إلى أنطاكية في شغل. وكان بها الرئيس تادرس بن الصفي(٢٣) وبيني وبينه صداقة؛ وهو نافذ الحكم في أنطاكية. فقال لصاحبي يوما: قد دعاني صديق لي من الإفرنج. تجيء معي حتى ترى زيهم؟

قال: فمضيت معه، فجئنا إلى دار فارس من الفرسان العتق(٢٤) الذين خرجوا في أول خروج الإفرنج، وقد اعتفى(٢٥) من الديوان والخدمة، وله بأنطاكية ملك(٢٦) يعيش منه. فأحضر مائدة حسنة، وطعاما في غاية النظافة والجودة. ورآني متوقفا عن الأكل، فقال: كل طيب النفس، فأنا ما آكل من طعام الإفرنج. ولي طباخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهن. ولا يدخل داري لحم خنزير. فأكلت وأنا محترز. وانصرفنا.

فأنا بعد مجتازا في السوق، وامرأة إفرنجية تعلقت بي وهي تبربر بلسانهم، وما أدري ما تقول. فاجتمع علي خلق من الإفرنج، فأيقنت بالهلاك. وإذا ذلك الفارس قد أقبل فرآني؛ فجاء فقال لتلك المرأة: مالك ولهذا المسلم؟ قالتك هذا قتل أخي عُرس(٢٧) (وكان عرس هذا فارسا بأفامية(٢٨)، قتله بعض جند حماة). فصاح عليها وقال: هذا رجل برجاسي(٢٩) (أي: تاجر) لا يقاتل، ولا يحضر القتال. وصاح على أولئك المجتمعين، فتفرقوا. وأخذ بيدي ومضى.

فكان تأثير تلك المؤاكلة خلاصي من القتل.

□□ الهوامش

* من كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ص١٣٢ - ١٤١ (طبعة برنستون).

(١) Fulk V. توّج ملكا على القدس حوالي سنة ٥٢٤هـ.

(٢) أبو الفوارس مرهف بن أسامة بن منقذ. كان أبوه يحبه حبا عظيما. وقد أصبح بعد من المقربين إلى صلاح الدين الأيوبي (انظر وفيات الأعيان ١/١٧٥، ومقدمة فيليب حتي لكتاب الاعتبار ك).

(٣) المنيطرة: قرب نهر إبراهيم، في شمالي لبنان.

(٤) عز الدين أبو العساكر سلطان: عم أسامة الذي تولى إمارة شيزر (قرب حماة) بعد أن تنازل له عنها أبو سلامة مجد الدين مرشد، أبو أسامة.

(٥) النشاف: البله (معربة عن نشاف الفارسية).

(٦) حمى المريض ما يضره: منعه إياه (حمى - يحمي حمية).

(٧) الفاس مؤنثة، وتجعل في عامية أهل الشام مذكرا.

(٨) مخ العظم: نقيه الذي في داخله (أمخ العظم: صار فيه مخ).

(٩) Bernard.

(١٠) من عامية أهل الشام. وفصيحها أن يقال: أمدت جراحها وأغنت؛ والسم: المدة والغثيثة (انظر: فقه اللغة للثعالبي ١٤٥).

(١١) لعل الصواب أن تقرأ: فتحت، على عامية أهل الشام؛ ولعل فصيحها: بثرت.

(١٢) فصيحها أن نقول: اندمل الجرح.

(١٣) حذق الخل - يحذق حذوقا: حمض حموضة شديدة تلذع اللسان.

(١٤) لعل الصواب أن تقرأ: ختمت؛ على عامية أهل الشام؛ وفصيحها: اندملت.

(١٥) من عامية أهل الشام؛ وفي اللسان: طوّل له: أمهله. وأطال الشيء وطوله وأطوله: جعله طويلا.

(١٦) كانت تدخل في مملكة القدس، أيام الاحتلال الصليبي.

(١٧) يقصد: أن المسلمين بنوها.

(١٨) فصيحها: تعب.

(١٩) أنكر الأمر: استنكره؛ والاسم: النكير.

(٢٠) الأحدوثة: ما حدث به؛ وربما صح جمعه على: أحاديث.

(٢١) تبلد: صار من أهل البلد؛ عامية.

(٢٢) نفذ: أنفذ.

(٢٣) Theodoros Sophianos.

(٢٤) العتيق: القديم؛ وجمعه: عتقاء وعتق.

(٢٥) اعتفى: طلب رفع التكليف منه.

(٢٦) ملك الشيء - يملكه مَلكا ومُلكا ومملكة: امتلكه؛ والملك: ما يملكه الإنسان ويتصرف به من مال وعقار.

(٢٧) Hurso.

(٢٨) أفامية: من أقدم المدن في وادي العاصي، قريبة من حماة؛ حيث تقع اليوم قلعة المضيق.

(٢٩) Bourgeoisie.